السنة الأولى ماستر
التخصص: تاريخ الجزائر الحديث 1519-1830
المقياس: التحولات الكبرى في غربي البحر المتوسط
الغزو الإسباني للسواحل الجزائرية

أ.د. عبد القادر فكاير

إذا كان الأسبان قد نجحوا في احتلال بعض المدن الساحلية لفترات متفاوتة من الزمن ، فإنهم فشلوا في السيطرة على مدن ساحلية أخرى رغم جديتهم في مسعاهم التوسعي . غير أن الشيء الملفت للانتباه هو أنه رغم الاندفاع الذي أبداه القادة الأسبان نحو الأراضي الجزائرية بقواتهم العسكرية ، وتمكنهم من احتلال بعض المواقع الساحلية إلا أنهم لم يتمكنوا من التغلغل إلى المناطق الداخلية من البلاد . باستثناء قدرتهم على الوصول إلى مدينة تلمسان مرورا ببعض المناطق المؤدية إليها . وقد تم الغزو على مرحلتين أساسيتين ، المرحلة الأولى في القرن السادس عشر ، والمرحلة الثانية ما بعد هذا القرن.

أولا : في القرن السادس عشر :

تميز هذا القرن بتعرض الجزائر إلى غارات أسبانية عديدة ، نجحوا في بعضها في احتلال بعض المدن وفشلوا في أخرى . وقد استعمل الأسبان طرقا مختلفة في فرض سيطرتهم على المدن الساحلية الجزائرية، من أهمها طرقتان رئيسيتان هما : أسلوب القوة العسكرية ، وأسلوب فرض المعاهدات على زعماء المناطق التي وصلوا إليها ، تحت طائلة التهديد . أما المناطق التي احتلوها بالقوة العسكرية فهي:

- احتلال المرسى الكبير 1505.
- احتلال وهران 1509.
- احتلال بجاية 1510.

بعدما خضعت المدن السابقة الذكر إلى الاحتلال العسكري، تعرضت مدن أخرى وإمارات إلى نفس المصير إذ وجدت نفسها مجبرة على توقيع معاهدات الولاء للأسبان نذكرها فيما يلي:

- مدينة تنس سنة 1508 :
- مدينة الجزائر سنة 1510
- مستغانم سنة 1511:
- مملكة تلمسان سنة 1511:

إلى جانب ذلك شن الإسبان حملات بعض المدن الساحلية ولكنهم فشلوا في احتلالها ، أو البقاء فيها لمدة أطول، رغم دخولهم إليها وهي :

- فشلهم في احتلال شرشال 1531
- احتلال مدينة هنين سنة 1531،ثن انسابهم منها سنة 1534 بعد تخريبها:

ـ فشل الأسبان في الاحتفاظ بمدينة عنابة إثر احتلالها سنة 1535 ولم يمكث الجنود الأسبان بعنابة إلا خمسة أعوام فقط حيث تمكنت القوات الجزائرية من محاصرتهم ، وأجبرتهم على الانسحاب سنة 1540. وقد جاء رد الإمبراطورشارل الخامس سريعا لضرب مدينة الجزائر في السنة الموالية حيث قام بحملة شارلكان على مدينة الجزائر1541 لكنه اضطر إلى الانسحاب وتعود أسباب ذلك إلى :

1 ـ استصغار الإمبراطور بشأن الجزائر واعتقاده بتحقيق النصر نظرا لطبيعة القوة العسكرية التي جاء بها.

2 ـ حسن قيادة حسن آغا وشجاعته في العمل على رد العدوان ، فلم يترك السكان يستسلمون لليأس . وذكر أنه قد ركب حصانه وطاف في المدينة يشجعهم. وقد استجابوا للأمر فصمدوا وتضامنوا أمام أعدائهم .

3 ـ فعل الزوبعة البحرية التي أتت على تحطيم 150 سفينة من أحجام مختلفة كانت راسية في البحر ، أو غرقت.

ـ فشل الأسبان في احتلال مستغانم (1558-1543): حيث وجه ضدها ثلاث حملات، في سنوات 1543 و 1547 و 1568. ولكنها كلها انتهت بالفشل، بل تم في الحملة الثالثة قتل قائد الحملة الكونت دالكوديت حاكم وهران سنة 1558.

و فشل الإسبان كذلك في احتلال مدينة الجزائر1567 إثر حملة قادها خوان غاسكون:

وفي بداية القرن الـ17 فشل الإسبان في مخططهم لاحتلال الجزائر سنة 1601، كان أعدها أعدها جاسوس فرنسي يدعى روكس(Roux).

أما خلال القرن الثامن فقد أعاد الإسبان احتلال وهران 1732 : لم يتحمل الأسبان حدث طردهم من وهران سنة 1708

، حيث ظلت آثار الهزيمة ماثلة في أذهانهم ، ولذا فإنهم ظلوا حريصين على إعادة احتلالها . ولتنفيذ هذا المخطط أصدر الملك فيليب الخامس منشورا مؤرخا في 6 جوان 1732 من إشبيلية يطلب فيه الدعم الداخلي ومن الدول المسيحية لاسترجاع المدينة ، ومما جاء فيه :<< إن التخلي عن وهران وتركها في أيدي المتوحشين يعني الإقرار بالهزيمة والعزوف عن تنصير الكفار ، ونشر الديانة ، ولذا قررت استرجاع المدينة ...، ومن أجل الوصول إلى هذا الهدف الكبير أمرت أن يجتمع الجيش في أليكانتي >>.

وتنفيذا لهذا المنشور أعد الأسبان في مدينة أليكانتي جيشا يتألف من 30 ألف رجل . وفي 15 جوان أقلع الأسطول نحو وهران تحت قيادة الدوق دي مونتيمار (Duc de Montemar)، التي وصلها في 29 من الشهر . وتم الإنزال في عين الترك ، حيث كان المكان شبه خاليا من القوات العسكرية الجزائرية . وتمكنت القوات الأسبانية من التقدم نحو المرسى الكبير ووهران ، وواجهتها القوات الجزائرية في عدة معارك . ونظرا لعدم تكافؤ القوتين وتأخر وصول الدعم من الجزائر، اضطر الباي بوشلاغم إلى إخلائهما من السكان والجنود الذين لم يأخذوا معهم سوى الأسلحة الخفيفة ، وحسب أحد التقارير أن الأسبان وجدوا بها 138 قطعة مدفع ، من بينها 87 قطعة من النحاس [4]، وذلك في شهر جويلية.

إن أهم ما ساعد على الاستقرار من جديد في وهران مدة أخرى امتدت إلى غاية عام 1791 ، هو استغلالهم للتحصينات التي كانت قائمة فيها قبل خروجهم الأول منها في سنة 1708 ، إذ لم يقم بوشلاغم بتهديمها . وقد تلا هذا الحدث الذي أصاب الجزائريين في فقدهم لهذه المدينة للمرة الثانية ، استمرار المعارك ، وفرض الحصار عليها من طرف القوات

الجزائرية استمر قرابة سنتين. ولهذا فإن الأسبان في وهران قد عززوا من تحصينات المدينة ، حيث أضافوا تشييد حصون أخرى وخطوط دفاعية متينة خاصة من الجهة الشرقية والجنوبية من مدينة وهران .

ولما فشل الأسبان في الاحتفاظ بالمدن التي احتلوها ، وعدم استطاعتهم البقاء في المدن الساحلية الأخرى لفترة أطول ، واستمرار الحصار عليهم في وهران ، عزموا في وقت لاحق على غزو مدينة الجزائر . ففي أواخر القرن الثامن عشر شنوا عليها ثلاث حملات بصورة منفردة أو عن طريق التحالف مع دول أخرى ، لكن الحظ في كل مرة كان في غير صالحهم ، فكانوا يرجعون منهزمين . وتتمثل هذه الحملات المتأخرة في حملة أوريللي سنة 1775، وحملتي بارثيللو في سنتي 1783، 1784 على التوالي .

3 ـ حملة أوريللي على مدينة الجزائر1775 : لقد استمر الأسبان في سعيهم الحثيث من أجل احتلال مدينة الجزائر رغم المحاولات السابقة التي وقعت في القرن السادس عشر. ففي سنة 1775 ، حاول شارل الثالث تحقيق ما فشل فيه أسلافه. وكانت وهران تتعرض من حين لآخر للهجوم من طرف القوات الجزائرية، مما أنهك الجيش الأسباني بها . فرأت السلطة في مدريد أنه لا مناص لها من أحد الحلين ، إما الانسحاب من وهران أو إخضاع العاصمة . فاختارت الحل الثاني. فجهزت حملة كبيرة تتألف من 22600 مقاتل ، على متن أسطول تعداده 400 سفينة حربية ونقل ، وعتاد حربي ومؤن وذخيرة . وقد حظي الملك الأسباني بتأييد الكنيسة وبعض الدول الأوربية على رأسها المدن الإيطالية . عين الملك دون بيترو كاستخون قائدا للأسطول ، بينما تولى قيادة الجيش الأميرال الأيرلندي الأصل أوريلي.

انطلقت الحملة من قرطاجنة في 23 جوان ، ووصلت إلى عاصمة الجزائر في أول جويلية . لقد اندهش الأسبان عندما شاهدوا شواطئ العاصمة محصنة بالمدافع ، وهذا ما دفعهم إلى اختيار خطة الإنزال البري ثم الزحف على العاصمة. بدأ الإنزال في مصب وادي الحراش في 8 جويلية ، الذي كان بطيئا مما سهل على سلطات الجزائر استقدام التعزيزات العسكرية من البيالك ، حيث استجاب<< الأمراء[البايات] الثلاثة للقدوم إلى الجزائر >> تنفيذا لدعوة الداي.هذا ما أرغم الأسبان على الانسحاب وبطريقة غير نظامية ، لما أصابهم من ارتباك أرغمهم على ترك عتادهم والتخلي عن أسلحتهم ، والالتحاق بسفنهم الراسية في الساحل ، تاركين نحو 100 مدفع ، وآلات حربية أخرى ، وحوالي 3000 قتيل ، و 466 جريح). وذلك بعد معركة دامت عشرة أيام .

4 ـ حملتا الدون أونطونيو بارثيلو سنة 1783 و1784 :لم تهضم أسبانيا رفض الجزائر عرض الصلح ، لذا وجه الملك شارل الثالث مرة أخرى أسطولا في صيف 1783 ، يقوده بارثيلو ، يتجاوز عدد سفنه الثمانين ، وفي أول أوت باشرت قصفها على مدينة الجزائر، وفي يوم 4 أوت اضطر البحارة الجزائريون إلى الخروج لمقاومة الأسطول الأسباني، وأجبروه على التراجع بعيدا ، بحيث لم تتمكن قذائف مدفعيتهم من إصابة هدفهم . وقد استمرت المعركة إلى غاية يوم 9 من الشهر. وقد أحدثت القذائف خسائر في المباني ، لكنها لم تمس الحصون البحرية إلا بأضرار خفيفة ، وبلغ عدد الموتى من المسلمين 46 شخصا. وبعد انسحاب القوات الأسبانية شرعت السلطات الحاكمة في ترميم ما تهدم من جراء القصف ، اتقاء لأي هجوم آخر . ثم بنت حصنا أكثر مناعة .

وفي جويلية سنة 1784 أعاد الأسبان كرتهم ، فأرسلوا أسطولا آخر تحت قيادة بارثيلو مرة أخرى ، يضم 130 سفينة حربية من كل الأحجام . وقبيل انطلاقها بقليل ، بارك البابا الحملة فأصدر بلاغا منح فيه البركة والغفران لكل مسيحي يشارك فيها .

بدأت المعركة في 12 جويلية واستمرت إلى يوم 22 من نفس الشهر ، حيث أجبرت الأسطول الأسباني على الانسحاب ويعود ذلك لجملة من الأسباب منها :

1 ـ الاستعداد الجيد من قبل الجزائريين ، الذي قاموا بإنشاء عددا من الحصون والقلاع الجديدة ، وبناء السفن .

2 ـ القصف المدفعي الجزائري من الحصون أجبرت السفن الأسبانية على البقاء بعيدا عن المدينة .

3 ـ خروج سفن الأسطول الجزائري وهي تحمل المدافع الكبيرة ، فأرغمت الأسطول الأسباني على البقاء بعيدا عن المدينة ، مما جعل قذائفه تسقط في البحر ، ولا تصيب المدينة .

4 ـ مشاركة المتطوعين من الرجال في القتال ، فقد وصف الزهار ذلك الحماس بقوله << وقت الخروج لملاقاة العدو ، تجد الناس يزدحمون على الركوب معهم ، ولا يصل لذلك إلا الرجل الشجاع >>. وهكذا لم تحقق الحملة هدفها .